جهود المستشرقين في تحقيق ونشر التراث العربي

أ/ ميلود فضة

أستاذ مساعد _ أ _

قسم اللغة العربية وآدابها (جامعة زيان عاشور بالجلفة)

ارتبط مفهوم التراث بالاستشراق والمستشرقين؛ نظرا لما قاموا به من دور في إحيائه ونشره، منذ ظهور الطباعة في أوربا خلال القرن السادس عشر الميلادي، ويجدر بنا هنا أن نتعرض إلى مفهوم: التحقيق، التراث، والاستشراق باختصار؛ لعلاقة هذه المصطلحات بهذا الموضوع، ثم نتكلم عن أعلام المستشرقين، وما قدموه من أعمال في تحقيق الكتب العربية المخطوطة ونشرها.

التحقيق:

جاء في اللسان: حقّه يحقّه حقّا وأحقّه كلاهما: أثبته، وصار عنده حقا لا يشك فيه. ويقال: أحققت الأمر إحقاقا إذا أحكمته وصححته(1). وكلمة (تحقيق) هي ترجمة لكلمة (critique) الفرنسية، ولكلمة (criticism) الإنجليزية. وذلك لأن كلمة (تحقيق) العربية لم تستعمل قديما في اللغة العربية بمعناها العلمي أو الاصطلاحي هنا، لأنها معجميا تعني (إحكام الشيء). وإذا رجعنا إلى المعاجم الحديثة المختلطة لنتبين معنى كلمة (critique) وكلمة (criticism) فسنرى (معجم مصطلحات الأدب) يترجمها كالآتي:((الفحص العلمي للنصوص الأدبية من حيث مصدرها، وصحة نصها، وإنشاؤها وصفاتها وتاريخها)) (2).

وفي الاصطلاح أعطي لها عدة تعريفات متشابهة، بالإضافة إلى التعريف السابق، نكتفي بواحد منها: ((التحقيق:إخراج نص معين في شكل أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه، اعتمادا على المقارنة بين كل النسخ التي بقيت من الكتاب)) (3).

أو قل هو: عملية بناء النص، حتى يكون على الصورة التي تركها عليه مؤلفه.

التراث:

قال ابن سيده: الورث والإرث والتراث والميراث: ما ورّث، وقيل: الورث والميراث في المال، والإرث في الحسب (4). فكلمة (التراث) لغويا تعني: كل ما يرثه الإنسان من أسلافه من ماديات (5) وتجمع المعاجم العربية على أن كلمة (تراث) مأخوذة من الفعل (ورث) (6)

ويبدو أنه لم يقع خلاف في أن الميراث هو ما يخلفه الرجل لورثته (7). وظلت هذه الكلمة محدودة الاستعمال تنوب عن أختها (الميراث) في كثير من مجالات استخدامها، إلى أن جاء العصر الحديث، فأصبحت تشمل نتاج الحضارة في جميع ميادين النشاط الإنساني (8).

وتحقيق التراث: هو العلم الذي يبحث فيه عن قواعد نشر المخطوطات (9) والتراث الذي نقصده في هذا الموضوع هو ما أنتجه العرب من الكتب والرسائل، والذي يعد بالآلاف، ولا يزال الكثير منه مخطوطا في مكتبات العالم وعند الخواص.

الاستشراق:

يقصد بالاستشراق؛ تخصيص علماء غربيين في الدراسات الشرقية على اختلاف مجالها (10) وعن اشتقاق كلمة (مستشرق) يقول " عبد المجيد دياب " أنها مشتقة من الفعل (استشرق) أي طلب الشـرق، فالمستشرق في أبسط صورة: عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية، وجمهور المستشرقين من الرهبان (11).

وترجع بداية الاستشراق إلى القـرن الثاني عشر؛ ففي عام 1143م تمت ترجمة القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة اللاتينية، وكان ذلك على أرض الأندلس، وفي هذا القرن أيضا ظهر أول قاموس لاتيني عربي(12).

وفي هذا القرن كذلك، أصبحت المدن الأندلسية مليئة بالمهاجرين إليها من الإفرنج، ولدى " جرجي زيدان " ما يبرر هذا بقوله:((وفي القرن الثاني عشر للميلاد أصبحت طليطلة وغيرها من مدن الأندلس، آهلة بالنازحين إليها من الإفرنج؛ للاستفادة أو الترجمة أو التأليف، كما كانت بغداد في عصر الرشيد والمأمون)) (13).

ولكن بداية(14) اهتمام الإفرنج باللغة العربية كان منذ القرن العاشر للميلاد، يقول "جرجي زيدان"((بدأ الإفرنج يهتمون باللغة العربية منذ القرن العاشر للميلاد، ليطلعوا على ما فيها من العلم الطبيعي والطب والفلسفة وقد نقلوا أهم تلك الكتب إلى اللاتينية، وهي لسان العلم عندهم يومئذ)) (15).

ويؤكد هذا القول " محمود محمد الطناحي " بقوله:((وقد بدأ اتصال الغرب بالحضارة العربية اتصالا فعليا ومؤثرا منذ بزوغ النهضة الأوربية في القرن العاشر، أو قبله بقليل، وظهرت آنذاك طلائع المستشرقين... التفتـوا التفاتة جادة إلى تراث العرب، وقد عرفوه من عرب الأندلس، ومصر ، والشام...))(16).

والمصنفات التي استفادوا منها تتمثل في مؤلفات " الخوارزمي" و"البيروني" وابن "سينا" و"ابن رشد" و"ابن الهيثم" و"أبي بكر الرازي" والإدريسي" وعبد اللطيف البغدادي" (17).

والمستشرقون – حسب عبد المجيد دياب- ثلاثة ضروب(18):

1ـ ضرب لم يملك ناصية اللغة فأخطأ في نشر الكتب وفهم النصوص.

2ـ ضرب أثرت في دراساتهم مآرب السياسة والتعصب الديني.

3ـ فريق ثالث أوتي الكثير من سعة العلم، والتمكن من العربية، والإخلاص للبحث، والتحرر والإنصاف.

واهتم علماء الغرب بنشر نصوص الآداب القديمة (اليونانية واللاتينية) بداية من القرن الخامس عشر الميلادي، حتى انتهى بهم الأمر إلى وضع قواعد وأصول علمية لنقد النصوص ونشر الكتب القديمة خلال القرن التاسع عشر، وتأثر بهم المستشرقون في نشرهم للكتب العربية في ذلك القرن وما بعده(19).

ويقول "عبد المجيد دياب " (20) أن الاستشراق والمستشرقين، خلال القرن التاسع عشر، ظهر في صور متعددة:

1ـ استعانة المستشرقين بالعلماء العرب.

2ـ عقد المؤتمرات.

3ـ الجمعيات الأسيوية والمعاهد الشرقية التي أسسها المستعمرون.

4ـ جمع نفائس المخطوطات أيام محنة المسلمين في الأندلس وصقلية، وفي الحروب الصليبية.

وللمستشرقين عناية خاصة بما ينشرونه من الكتب العربية، وامتازت منشوراتهم بالضبط ومراجعة الأصول المتعددة للمخطوطات، وبذلوا جهدا في التحقيق والتعليق، كما يذيلون الكتاب بالفهارس، ولقد سبقوا المطابع الشرقية في نشر الكتب المهمة في التاريخ والأدب وغيرهما، وبالمقابل كان المعول في مطابع الشرق في نشر الكتب، غالبا، الطبعات الأوربية(21).

وقد ذكر "جرجي زيدان " عددا من المؤلفات العربية التي نقلها مستشرقون إلى لغاتهم، منها(22):

ـ نقلوا طائفة من الشعر العربي إلى اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والألمانية؛ كديوان الحماسة، وأشعار الهذليين، وبعض أشعار الأغاني، وديوان امرئ القيس، والنابغة، وطرفة، والخنساء، والبردة، وشعر الفرزدق، وبعض أشعار المتنبي، وأبي العلاء، والمعلقات، ولامية العرب، وأشعار الجاهلية، وأشعار عنترة ، وديوان البهاء زهير، وديوان لبيد(23).

ـ ومما نقلوه من كتب الأدب واللغة إلى الفرنسية: (أطواق الذهب) للزمخشري، و(ملحة الإعراب)، و(ألف ليلة وليلة) و(مقدمة ابن خلدون)، و(مقامات الحريري)، و(الأجرومية)، و(كليلة ودمنة)، وكتاب(المستطرف) (24).

ـ ونقلوا إلى الإنجليزية: (مقامات الحريري) و(أدب الكاتب) و(ألف ليلة وليلة)،و(رسالة حي بن يقظان) و(تاج العروس)، و(كليلة ودمنة)، وإلى الألمانية: (أطواق الذهب)، و(كتاب سيبويه)، و(ألف ليلة وليلة)، و(كليلة ودمنة)، وغيرها (25).

ـ وما نقلوه من كتب التاريخ ونحوها ؛ ككشف الظنون، وتاريخ الطبري، وابن خلكان،وتاريخ الخلفاء للسيوطي، ورحلة ابن بطوطة، ونفح الطيب، ومروج الذهب، وجغرافية الإدريسي، وسيرة ابن هشام...(26).

ويظهر جليا، هذا الاهتمام بالتراث العربي من قبل المستشرقين،عندما يتعلق الأمر بالجامعات، يقول "محمود محمد الطناحي" ((وقد نقل المستشرقون الاهتمام بالتراث العربي إلى داخل الجامعات؛ فأنشأوا بها كراسي للغات الشرقية والأدب العربي، كما في جامعات السوربون بفرنسا، وأكسفورد، وكمبريدج بإنجلترا، وليدن بهولندا، وقد عمل في هذه الجامعات بعض الأساتذة العرب... ومن عجيب ما يذكر هنا، أنهم قد اصطنعوا في هذه الأقسام التي تعنى بالتراث العربي وظيفة " قارئ نصوص " بجانب الأساتذة والمحاضرين)) (27).

ويظهر اهتمامهم كذلك، في إنشاء مجلات خاصة، والمكتبات التي تعنى بجمع المخطوطات العربية وصيانتها(28).

ومن أوائل طبع في أوربا: كتاب الكافية في النحو لابن الحاجب، وكان ذلك عام 1592م، والقانون في الطب لابن سينا، سنة 1593م، لأن إيطاليا كانت المهد الأول للطباعة العربية (29).

ويورد " عبد الهادي الفضلي " عددا مما نشره المستشرقون من المخطوطات العربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي محققا، ومكان صدوره وتاريخه، نختار بعضها (30):

_ كتاب الفلاحة، لابن العوام الإشبيلي (من علماء القرن السادس الهجري) نشر في جزأين في مدريد سنة 1217هـ/1802م، بتحقيق وترجمة: " جوزيف أنطونيو بانكري " (ت 1818م).

_ شرح ديوان المفضليات، لأبي بكر الأنباري (ت328هـ) نشرته المطبعة الكاثوليكية بأكسفورد سنة 1223هـ/1808م، بتحقيق " تشارلس لايل".

_ شرح الحماسة، للتبريزي (ت 502هـ) نشر في "بون" سنة 1828م، " فريتاغ ".

_ تقويم البلدان، لأبي الفداء (ت732هـ) نشر بباريس سنة 1256هـ/1840م، بتحقيق: " ماك جوكين دي سلان".

_ المشترك وضعا والمفترق صقعا، لياقوت الحموي (ت 626هـ) نشر سنة 1262هـ/1846م، بتحقيق: "فرديناند فستنفلد ".

_ آثار البلاد وأخبار العباد، للقزويني (ت682هـ) نشر عام 1264هـ/1848م، بتحقيق: " فستنفلد ".

_ عجائب المخلوقات، للقزويني، أيضا، نشر عام 1265هـ/1849م، بتحقيق: " فستنفلد ".

_ الاشتقاق في اللغة والأنساب، لابن دريد (ت 321هـ) نشر سنة 1853م، بتحقيق: " فستنفلد ".

_ معجم البلدان، لياقوت الحموي (ت626هـ) نشر سنة 1868م، بتحقيق: " فستنفلد ".

_ الفهرست، لابن النديم (ت438هـ) نشر سنة 1871م، بتحقيق: " غوستاف فلوجل ".

وغيرها من أعمال المستشرقين (31) والتي لا يسمح المجال لذكرها الآن.

وفي هذا الموضوع، ينبغي ألا نهمل دور العرب في المحافظة على التراث، وبعثه؛ رواية وتأليفا وتحقيقا، والعارف بتاريخ أمتنا يجد أن علماءنا الأوائل قد عرفوا: المقابلة بين النسخ، ورتبوا معاجمهم على حروف المعجم، كما عرفوا الأمانة في نقل النصوص، وعزوها إلى أصحابها، ويذكرون مراجعهم التي اعتمدوها...

وفي هذا السياق، يذكر " محمود محمد الطناحي"(32) مجموعة من خبراء المخطوطات والتراث الذين أفادوا المستشرقين إفادات شتى، منهم: محمد رشاد عبد المطلب، وفؤاد سيد، كوركيس عواد، وقاسم الرجب، وأحمد عبيد، وإحسان عباس، وصلاح الدين المنجد.

هذا، بالإضافة إلى النسّاخ المجيدين الذين استعان بهم المستشرقون في نقل المخطوطات (33).

ويقول المؤلف السابق أن بعض المستشرقين قد وقع في أوهام غليظة،وخاصة فيما يتعلق بألفاظ اللغة العربية، وتراكيبها، ودلالاتها، ومصطلحات علوم العربية، ويوجد أكثرها في دواوين الشعر الجاهلي التي نشروها (34)، لذلك نجدهم: ((تعرضوا بسبب ذلك لنقد شديد، من إخوانهم المستشرقين الأثبات)) (35). ويعطي " محمود

محمد الطناحي " تعليلا لتلك الأوهام والأخطاء التي وقع فيها بعض المستشرقين، فيقول: ((فإن اللسان غير لسانهم، حتى الذين تضلعوا منهم في العربية، وكتبوا فيها شعرا ونثرا، ظل الفرق واضحا بين ما يكتبون، وما يكتب أهل اللسان العربي...)) (36).

ويضرب المؤلف نفسه مثالا عن ذلك، ما وقع فيه المستشرق الألماني " جوتهلف برجستراسر " في تحقيقه لكتاب (مختصر في شواذ القراءات) لابن خالويه، حيث صحّف كلمة " أبي عمرو بن العلاء ": ((فقد تربّع في لَحْنِه)) وجعلها: ((فقد تربع في الجنة)) (37).

وختاما لهذا الموضوع، ومن خلال ما مر بنا من نماذج، نستطيع القول أن المستشرقين قد قاموا بجهود جليلة في تحقيق ونشر المخطوطات العربية، متأثرين بأمثالهم الغربيين، الذين وضعوا قواعد وأصول علمية لنقد النصوص ونشر الكتب القديمة خلال القرن التاسع عشر، أما العرب فقد عرفوا التحقيق ومارسوه قبلهم؛ لكنهم لم يعرفوه بشكل علم قائم بذاته.

الهوامش:

(1) لسان العرب (حقق).

(2) انظر: تحقيق التراث، عبد الهادي الفضلي، ص: 31_32.

(3) معجم مصطلحات المخطوط العربي، أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي، ص: 74.

(4) اللسان (ورث).

(5) تحقيق التراث، ص: 34.

(6) منهج البحث وتحقيق النصوص، محمد صالح ناصر، ص: 76.

(7) تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، عبد المجيد دياب، ص: 12.

(8) منهج البحث وتحقيق النصوص، ص: 76_77.

(9) تحقيق التراث، ص: 36.

(10) تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، ص: 176.

(11) المرجع نفسه، ص: 176.

(12) المرجع نفسه، ص: 177.

(13) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، 260/4.

(14) لتفصيل الحديث عن بداية الاستشراق، وأقدم المستشرقين، وكذا المعاصرين، وكتبهم، وأثرهم في تعريف الآداب العربية إلى العالم الغربي؛ بما نقلوه منها، يراجع: تاريخ آداب اللغة العربية: 259/4 وما بعدها.

(15) تاريخ آداب اللغة العربية: 259/4.

(16) مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف، محمود محمد الطناحي،ص: 206.

(17) انظر: المرجع نفسه، ص: 206 هامش. وللاستزادة من موضوع إفادة المستشرقين من التراث العربي، قديما وحديثا، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بدءا من أوائل علمائهم في تلك الحقبة (القرن العاشر الميلادي) واعترافهم بفضل العرب عليهم، يراجع: المرجع نفسه، ص: 206 وما بعدها.

(18) انظر: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، ص: 181.

(19) انظر: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، رمضان عبد التواب، ص: 57_58.

(20) انظر: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، ص: 184 وما بعدها.

(21) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية: 292/4.

(22) انظر: المرجع نفسه: 292/4 وما بعدها.

(23) انظر: المرجع نفسه: 292/4_293.

(24) انظر: المرجع نفسه: 293/4.

(25) انظر: المرجع نفسه: 293/4.

(26) انظر: المرجع نفسه: 293/4_294.

(27) مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، ص: 215.

(28) انظر: المرجع نفسه، ص: 214.

(29) انظر: المرجع نفسه، ص: 213_214.

(30) انظر: تحقيق التراث، ص: 13 وما بعدها.

(31) للمزيد حول أعلام المستشرقين الذين اهتموا بنشر التراث العربي، راجع: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، ص:188 وما بعدها، وتاريخ آداب اللغة العربية: 259/4 وما بعدها. وانظر كذلك قائمة بأسماء هؤلاء المستشرقين ومؤلفاتهم وسنوات طبعها كتاب: مناهج تحقيق التراث بين القدماء والمحدثين، ص: 57_58.

(32) مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، ص: 223.

(33) المرجع نفسه، ص: 223.

(34) المرجع نفسه، ص: 226.

(35) المرجع نفسه، ص: 226_227.

(36) المرجع نفسه، ص: 226_227.

(37) المرجع نفسه، ص: 228.

المصادر والمراجع:

_ تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، موفم للنشر، الجزائر، 1993.

_ تحقيق التراث، عبد الهادي الفضلي، مكتبة العلم، جدة، ط1، 1402هـ/1982م.

_ تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1993م.

_ لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: مجموعة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.

_ مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف، محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1984م.

_ معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي)، أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط3، 2005م.

_ مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1986م.

_ منهج البحث وتحقيق النصوص، محمد صالح ناصر، معهد الاستقامة للدراسات الإسلامية بزنجبار وجمعية الاستقامة الإسلامية التنزانية، د.ت.